الاجتهاد والتجديد في علوم السُّنة النبوية

عبد الجبار سعيد*

الملخص

جاءت هذه الدراسة في مبحثين، تناول المبحث الأول مفهوم الاجتهاد والتجديد وأهميتهما، وحاجة علوم السنة النبوية إليهما، وفي المبحث الثاني صنَّف الباحث أنوع الاجتهاد المطلوب في السنة النبوية إلى خمسة أنواع هي: الاجتهاد الإبداعي الإنشائي، ويقصد به ما يمكن أن ينشئه المجتهد من العلوم الجديدة في ضوء تطور الزمان والمكان والواقع، والاجتهاد التجديدي: ويقصد به ما يمكن أن يعود إليه المجتهد من علوم السنة ويعيد إحياءها، والاجتهاد الترجيحي المقارن: ويقصد به ما يرجحه المجتهد مما يحتاج إلى ترجيح، والاجتهاد التطبيقي: ويقصد به توفير قدر من الأمثلة والتطبيقات التي توضح علوم السنة وقواعدها، والاجتهاد المنهجي: ويعني تدعيم المنهجية في التعامل مع السنة النبوية فهماً وتنزيلاً.

الكلمات المفتاحية: الاجتهاد، التجديد، علوم السنة، الاجتهاد الإبداعي، الاجتهاد التجديدي، الاجتهاد الترجيحي المقارن، الاجتهاد التطبيقي، الاجتهاد المنهجي

Interepretive Reasoning (Ijtihad) and Renewal (Tajdid) in the Study of the Prophetic Sunnah

Abstract

This article has two sections. The first one deals with the two concepts: interpretive reasoning (ijtihad) and renewal (tajdid), their importance and relevance to Prophetic Sunnah. In the second section the author classifies the required ijtihad in the Prophetic Sunnah into five categories: creative ijtihad through application of new disciplines and sciences, ijtihad of renewal through revival of the Sunnah sciences, ijtihad in giving balance and preference, ijtihad in matters of application, and methodological ijtihad.

Keywords: Ijtihad (interpretive reasoning), Tajdid (renewal), Sunnah Sciences, Creative Ijtihad, Ijtihad of Renewal, Balancing and Preferential Ijtihad, Applied Ijtihad, Methodological Ijtihad.

---

* دكتوراه في السّنة وعلوم الحديث من جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٦م، أستاذ مشارك، في كلية الشريعة بجامعة قطر. البريد الإلكتروني: Abdul_jabbar65@qu.edu.qa

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٥/١/٢م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٥/٥/٢٠م.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فإنَّ الله تبارك وتعالى أنزل القران الكريم، وجعل معه السّنة النبوية. ومنها: ما هو وَحْيٌ ومنها ما ليس بوحي، والنبي ﷺ في التعامل مع السنة بيْن مُبلِّغ وشارح وموضّح ومجتهد. والقرآن الكريم والسنة النبوية أساس الدين، والسنة شارحة وموضحة للقرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤)، فهي البيان والتطبيق العملي النبوي للقرآن الكريم.

وحفظ الله سبحانه القرآن الكريم من كل تحريف، ويسّر لنا أدوات حفظ السنة النبوية، وبحفظهما يحفظ الدين، ولذا فهما مستمران خالدين مدى الحياة ومدى الحاجة إلى الدين، وهذا يجعلهما بالضرورة صالحين لكل الأزمنة والأمكنة وفي كل الظروف والأحوال. ومع أن طبيعةَ النصوص الثباتُ وعدمُ التغير، إلا أنَّ فهمها وإدراك مراميها، وحسن التعامل معها، وفهم الواقع الذي ستعيش فيه هذه النصوص، وحسن تنزيل أحدهما على الآخر،[1] هو بالضرورة أمر لا بدّ منه، إذا أردنا أن نتحدث عن صلاحية النص لكل زمان ومكان، وعليه فإن النص لا يتغير ولا شك، ولكن العلوم الناشئة حوله وأدواتها لا بد أن تتغير، أو تتطور، لأنها مقتضيات الفهم المتجدد للنص، ومن ثمّ نواتج هذه العلوم التي هي ثمار تنزيل النص والواقع أحدهما على الاخر.

ولعل علوم القرآن والسنة، من أجدر العلوم التي لا بدّ وأن تدور في حلقة هذا التطوير والتجديد. ونظراً لارتباط هذه العلوم بالنصوص ولدورها التأصيلي في التهيئة والتحضير للأحكام والأفهام التي تنتج عن النص، فهي بمثابة العلوم الوسيطة بين النص، وفهم النص، فقد أخذت هذه العلوم منحى أصوليا أشعر ببعدها عن الاجتهاد والتجديد عموما، وبات البعض يضفي عليها هالة من النص ذاته، أحياناً بدافع الدفاع عن القرآن

[1] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، الكويت: مكتبة دار البيان، د.ت، ص١٣.

والسنة، والذب عنهما من حيث إمكانية تعريضهما للطعن والتشويه. وأحيانا بدافع التقليدية واحترام القديم واعتقاد أنه ما ترك القديم للجديد شيئاً، فينبغي أن نكون عالة على من سبقنا في هذه العلوم. حتى غدا البعض ممن يدعو إلى تطوير هذه العلوم، وإجراء بعض المراجعات، محلاً للهجوم ومحاولات التشويه، ومثال ذلك ما تعرض له فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى عندما كتب "السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث"، وما اتهم به هو والشيخ القرضاوي حفظه الله من محاول تضييق الاحتجاج بالسنة، من خلال ما طرحا من كون بعض السنة محلا للتشريع، وبعضها ليس كذلك.[٢] ومما تعرض له فضيلة الدكتور طه العلواني، والدكتور سليمان عبد الحميد من هجوم بسبب ما دعوا إليه من تجديد النظرة إلى علاقة السنة بالقرآن، ومسألة كون السنة مبينة للقرآن، وموقعها في إنشاء الأحكام.

وهذا البحث محاولة للتنقيب عن إمكانية التجديد في علوم السنة النبوية، ومحاولة لتقديم رؤية وفتح آفاق لهذا التجديد، لعلها تسهم في تفجير مكامن ومختزنات البحث لدى الباحثين المجتهدين والمهتمين بالسنة وعلومها. فبالرغم مما ذهب إليه العديد من العلماء والباحثين من أن علوم السنة النبوية قد نضجت، وأنه لم يترك السابقون الأولون للاحقين شيئاً، وأنه لا مجال لإضافة الجديد في علوم السنة النبوية. فالأمر في تقديري على خلاف ذلك، فمجالات البحث والاجتهاد والتجديد متعددة ومتنوعة، وفيها الكثير من الفرص للبحث والتنوع والإبداع والإضافة، على أن هذا لا يقلل من شأن جهود العلماء السابقين، التي ينبغي أن يبنى عليها، لا أن يتم تجاوزها أو إهمالها.

وقد سلك الباحث المنهج الاستنباطي الذي تقتضيه طبيعة هذا البحث في الغالب، ففي ضوء ما يتقرر من القواعد والكليات في إطار الاجتهاد والتجديد، يتم الدخول إلى الفروع والتفصيليات في أشكال ومسارات الاجتهاد والتجديد.

وقد كُتبت في الاجتهاد والتجديد في علوم الشريعة؛ في الفقه والفكر والخطاب الديني عموما كتب وأبحاث كثيرة ومن أهمها:

[٢] الدريس، خالد. "تضييق مسالك الاحتجاج بالسنة"، الندوة الدولية الثانية للحديث، دبي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

- مفهوم تجديد الدين، لبسطامي محمد سعيد، صادر عن مركز التأصيل للدراسات، عام ٢٠١٥م. تعرض فيه لمفهوم التجديد السني، والمفاهيم الخاطئة للتجديد، والمفاهيم العصرانية.

- التجديد في الفكر الإسلامي للدكتور عدنان محمد أمامة، صادر عن دار ابن الجوزي، وهو في أصله رسالة دكتوراه نوقشت عام ٢٠٠١م. وقد تناول فيه مفهوم التجديد من جهة اللغة والاصطلاح وتناول التجديد في جميع العلوم الإسلامية بشكل مختصر، بعد أن ناقش حديث تجديد الدين، وفي مجال السنة النبوية حصر التجديد في ثلاثة مجالات هي: تخريج الأحاديث في الموسوعات غير المخرجة، ومقومة البدعة، وتنزيل النصوص على الواقع المعاصر والخروج بأحكام جديدة، ويرى الباحث أن الكاتب لم يفصل في هذه المجالات ولا أعطاها حقها، كما أنه لم يفرّق بين التجديد في السنة والتجديد في علومها، وهو ما التفت إليه الباحث في بحثه الذي تركز حول التجديد في علوم السنة.

- ولا يخفى على مفكر مشروع التجديد الذي تبناه محمد عابد الجابري-رحمه الله- سواء على صعيد الخطاب الديني، أو التراث العربي، أو العقل العربي في مؤلفاته المتعددة مما يصعب حصره والتعلق عليه في هذا المقام، ولكنه بلا شك لم يقف أمام السنة بشكل خاص وتفصيلي إلا من حيث هي جزء من بنية الدين، والخطاب الديني.

- كما كان التجديد دائما محور الكثير من المشاريع الإصلاحية الفكرية والعلمية والدعوية على صعيد الأمة وعبر التاريخ، فقد أسهم ابن تيمية عبر إنجازه الثقافي والفكري ومواجهته الاحتلال، في إحياء الدين في واقع الأمة. وكذا أسهم الإمام الغزالي تاريخياً في تجديد الدين وإصلاح الأمة في زمانه، عبر مدارسه العلمية ومؤلفاته، مما ترك أثراً ممتداً إلى زماننا هذا، وكذا كان الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا ومدرسة المنار، وما أحدثوه من تحولات وانعطافات مهمة في الفكر الإسلامي، وصولاً إلى مدرسة إسلامية المعرفة. فقد كانت لكل ذلك آثار ملموسة في تجديد الفكر الإسلامي والخطاب الديني، وتطوير مناهج التعامل مع التراث وأصول الدين الإسلامي(القرآن والسنة)، وقد كانت محاولات التجديد هذه تواجه في كثير من الأحيان بمحاولات القمع أو التشويه، أو التدجين.

- ولم يخل الأمر من محاولات لتجديد الحضارة والفكر بل والدين على قاعدة إلحاق الأمة بالغرب والحضارة والغربية، وبرزت حالة من التنافس الفكري الذي كان له بعض النتائج الإيجابية في تجديد الحيوية الفكرية، على الرغم من أن بعض هذ المحاولات حرفت البوصلة أو أشغلت الأمة عن مهمة التجديد الحقيقي والنهوض الحضاري.

ومن أهم الكتب التي عالجت موضوع التجديد في الفقه الإسلامي:

١. مفهوم التجديد للدكتور محمود الطحان.

٢. تجديد الفقه الإسلامي للدكتور جمال عطية والدكتور وهبة الزحيلي.

٣. التجديد في أصول الفقه للدكتور حسن الترابي.

٤. السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث للشيخ محمد الغزالي.

٥. الفقه الإسلامي في طريق التجديد للدكتور محمد سليم العوا.

٦. التشريع والفقه لمناع القطان.

٧. الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد للدكتور يوسف القرضاوي.

٨. الفتوى بين الانضباط والتسيب، وكتاب الاجتهاد له أيضًا.

٩. الاجتهاد وقضايا العصر لمحمد بن إبراهيم.

١٠. التجديد في الإسلام (المنتدى الإسلامي– لندن).

١١. الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية لعمر عبيد حسنة.

١٢. المجددون في الإسلام للدكتور أمين الخولي.

وغير ذلك من الكتب والمشاريع الداعية إلى التجديد كثير، والملاحظ أنها وغيرها تتحدث حول التجديد إما في الدين عموماً وإما في الفقه خصوصاً. والذي يهمنا في هذا المقام ما يتعلق بالتجديد في علوم السنة، ومن المهم الانتباه إلى التفريق بين التجديد في

السنة أو تجديد السنة، والتجديد في علوم السنة، وهو ما يعنى بها هذا البحث، وهو ما سنأتي إلى توضيحه لاحقا.

– وفي تجديد علوم السنة خصوصا العديد من الدراسات والأبحاث، وعقدت العديد من المؤتمرات ومن ذلك:

١. التجديد في السنة وعلومها: مفهومه ومظاهره. لمؤلفه مشعل الحداري: بحث مقدم لمؤتمر: أسلمة العلوم المعاصرة وتجديد منهج الدراسات الإسلامية: آفاق وجسور. الذي نظمته كلية العلوم، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا عام ٢٠١١م. وهو بحث جيد في بابه، ولكنه في الجزء الأكبر منه تحدث عن تجديد له علاقة بالسنة أكثر مما له علاقة بعلومها، وقد ذكر مما يتعلق بتجديد علوم السنة، تنقيتها مما ليس منها، وتنقية الأحاديث والتمييز فيما بينها، وبيان استيعاب أصول السنة لمستجدات أصول العلوم الأخرى، وهنا قصد الباحث كون السنة تحتوي أصولا لعلوم أخرى كالإدارة وغيرها. والبحث لم يغط الكثير من مسائل التجديد في علوم السنة.

٢. مفهوم التجديد بين السنة النبوية وبين أدعياء التجديد المعاصرين: مقال للشيخ محمد لبيب منشور على موقع الدعوة السلفية.

٣. ندوة "نحو منهج لتجديد فهم السنة النبوية في ضوء حاجة الواقع المعاصر" نظمتها مجموعة البحث في العلوم الشرعية بالمغرب والأندلس بكلية أصول الدين بتطوان في المغرب، بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، والمركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان عام ٢٠١٠م: وقد تناولت الندوة أبرز التحديات التي تواجه السنة النبوية ومنها قضية التجديد بالإضافة إلى ورقة عمل حول نقد المتن، ودعا فيها الباحث إلى ضرورة تجديد وتحديد مفهوم السنة، وتجديد النظر في قواعد نقد المتن، وأخرى حول الأسباب المنهجية لسوء فهم السنة النبوية في عصرنا الحاضر. ويرى الباحث أن الندوة محاولة جيدة لفتح بعض الآفاق، ولكنها لم تغط الكثير من المحاور، فضلاً عن أن بعض ما قدم فيها لا علاقة له بالتجديد.

أولاً: مفهوم الاجتهاد والتجديد وأهميتهما

١. مفهوم الاجتهاد ومفهوم التجديد:

جاء في لسان العرب: الجُهد والجَهد الطاقة.... قال ابن الأثير قد تكرر لفظ الجُهد والجَهد في الحديث وهو بالفتح المشقة. وقيل هما لغتان في الوسع والطاقة، فأما في المشقة والغاية فالفتح لا غير. ويريد به في حديث أم معبد في الشاة الهزال. ومن المضموم حديث الصدقة: أي الصدقة أفضل؟ قال: جُهد المقل. أي قدر ما يحتمله حال القليل المال. وجهد الرجل إذا هزل.... والجهد بلوغك غاية الأمر الذي لا تألو على الجهد فيه. قال الفراء بلغت به الجهد؛ أي الغاية وجهد الرجل في كذا أي جد فيه وبالغ... وفي حديث معاذ اجتهد رأيي، الاجتهاد بذل الوسع في طلب الأمر وهو افتعال من الجهد والطاقة، والمراد به رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة، ولم يرد الرأي الذي رآه من قبل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة.[٣]

والاصطلاح الشائع لمفهوم الاجتهاد مرتبط بدلالته على الاجتهاد في الأحكام الفقهية، وعرّفه علماء الأصول:[٤]

قال الطوفي: "بذل الجهد في تعرّف الحكم الشرعي. وقال الآمدي: هو: استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية، على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد عليه." وقال القرافي: "استفراغ الوسع في النظر فيما يلحقه فيه لوم شرعي اصطلاحاً". وقال غيرهم بنحو هذه التعريفات ومقارب لها.

ونحن نسعى لاستعارة هذا الاصطلاح وتوسيعه ليشمل علوم السنة النبوية، فمفهوم الاجتهاد الذي نقصده في هذا البحث هو: "بذل الوسع لتحصيل القواعد والضوابط التي يعرف بها حال الحديث سنداً ومتناً من حيث القبول والرد، ومن حيث الفهم والتنزيل على الواقع، إنشاءً أو منهجاً أو تطبيقاً أو ترجيحاً أو تجديداً."

---

[٣] ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ، مادة جهد، ج٣، ص١٣٣.

[٤] المرداوي، علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان. **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه**، تحقيق: عبد الرحمن الجبرين، وزميلاه، الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٨، ص٣٨٦٧.

ومن الجدير ذكره في ضوء هذا المفهوم: أنَّ القول بالاجتهاد في علوم السنة النبوية، لا يعني بحال من الأحوال تجاوز جهود السابقين، وإنما الإفادة منها والبناء عليها، وهذا الاجتهاد له مسارات متعددة في نظر الباحث، منها ما هو متعلق بقواعد القبول والرد، ومنها ما هو متعلق بفهم النصوص وتنزيلها على الواقع؛ إذ إن علوم السنة رواية ودراية متعلقة بذلك ولا شك. كما أن الاجتهاد المقصود له أنواع وأشكال متعددة سنقف عندها في المبحث القادم بإذن الله.

أما التجديد فقد جاء في لسان العرب: والجدّ: إنما هو الاجتهاد في العمل... والجدة مصدر الجديد، وثياب جدد مثل سرير وسرر، وتجدد الشيء صار جديداً، وأجده وجدده واستجده أي صيره جديداً... والجديدان: الليل والنهار وذلك لأنهما لا يبليان أبداً... والجد: الاجتهاد في الأمور. وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا جدّ في السير جمع بين الصلاتين. أي اهتم به وأسرع فيه. وجدَّ به الأمر وأجدَّ إذا اجتهد. وفي حديث أحد: لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ قتل المشركين ليرين الله ما أجدّ؛ أي ما أجتهد.... ومنه يقال: فلان جاد مجد أي مجتهد... وقالوا: هذا العالمُ جِدُّ العالِم وهذا عالمٌ جِدُّ عالِمٍ، يريد بذلك التناهي وأنه قد بلغ الغاية فيما يصفه به من الخلال.[٥]

تناول مفهوم التجديد جمع من العلماء والمفكرين والمثقفين، وتباينوا أحياناً واتفقوا أحياناً أخرى تبعاً للزاوية التي ينظرون منها للمفهوم، والإطار الذي يبحثونه فيه، فتجديد الفكر غير تجديد الحضارة، وكلاهما غير تجديد الدين أو أجزاء منه، ونظرة المفكر والفيلسوف غير نظرة عالم الدين.

ومن محاولات تحديد مفهوم التجديد:[٦]

ما رآه الإمام المودودي: أن التجديد هو: "تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل على إحيائه خالصاً محضاً على قدر الإمكان."

---

[٥] ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة جدد، ج٣، ص١٠٧.

[٦] أمامه، عدنان. **التجديد في الفكر الإسلامي**، الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٤هـ، ص١٦-١٩.

ويرى الإمام القرضاوي أن التجديد لشيء ما: "هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قِدَمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وَهَى منه، وترميم ما بَلِي، ورتْق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى."

ويقول عبد الفتاح إبراهيم: "التجديد يعني العودة إلى المتروك من الدين، وتذكير الناس بما نسوه، وربط ما يجد في حياة الناس من أمور، بمنظور الدين لها، لا بمنظارها للدين."

ويرى الطيب برغوث أن التجديد هو: "تمكين الأمة من استعادة زمام المبادرة الحضارية في العالم كقوة توازن محورية، عبر إحكام صلتها من جديد بسنن الآفاق والأنفس والهداية، التي تتيح لها المزيد من الترقي المعرفي والروحي والسلوكي والعمراني."

وقد كان لعدد من العلماء والباحثين وقفة خاصة مع مفهوم تجديد الدين الوارد في حديث النبي ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها."[٧]

فقد قال العلقمي (ت٩٦٩هـ): معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل من الكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما. وكذا قال العظيم آبادي (ت١٣٢٩هـ). وقال المناوي (ت١٠٣١هـ): أي يبين السنة من البدعة، ويكثر العلم، وينصر أهله، ويكسر أهل البدعة ويذلهم. ونحوه قال الملا علي القاري (ت١٠١٤هـ). وكل ذلك يكون على مستوى الأمة بسعي بعض أفرادها.[٨]

- أما الدكتور سيف الدين عبد الفتاح فقد رأى أنه "تعلقت بهذا الحديث مجموعة من الأفكار أهمها: تجديد الدين وهو في حقيقته تجديد وإحياء وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين والتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه، لتحقيق العمارة الحضارية وتجديد حال

[٧] السجستاني، أبو داود. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد عبد الحميد، بيروت: المكتبة العصرية، د.ت، كتاب: الملاحم، باب: ما يذكر في قرن المائة، ج٤، ص١٠٩، حديث رقم٤٢٩١. وقد صحح هذا الحديث جمع من العلماء منهم الحاكم والسخاوي والسيوطي والعراقي وابن حجر وغيرهم. انظر:

- الحداري، مشعل. "التجديد في السنة"، مؤتمر أسلمة العلوم المعاصرة وتجديد منهج الدراسات الإسلامية: آفاق وجسور، كلية العلوم، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٢٠١١م، ص٥-٦.

[٨] المرجع السابق، ص٦-٧.

المسلمين، ولا يعني إطلاقاً تبديلاً في الدين أو الشرع ذاته... ويعد التجديد مفهوماً مناقضاً لمفهوم التقليد، ويقصد بالتقليد محاكاة الماضي بكل أشكاله وشكلياته."[٩]

نلاحظ أن جلَّ المفاهيم السابقة إما تعلقت بالدين عموماً أو بالفكر الإسلامي أو بالحضارة الإسلامية، حتى ما تعلق منها بالسنة فقد جاء عاماً حول تجديد السنة. وما يحاوله الباحث في هذا المقام، هو تحديد مفهوم التجديد لعوم السنة المشرفة تحديداً وهو:

"بذل الجهد في إنتاج –أو إعادة إنتاج وإحياء ما أنجزه السابقون– من علوم السنة بما يلائم زماننا وواقعنا المعاصر."

وهو بهذا مرتبط بالاجتهاد وفق المفهوم المشار إليه سابقاً، بل إن المعنى اللغوي ربط بينهما ربطاً واحداً، ومن ثمّ فالتجديد فيما يذهب إليه الباحث شكلٌ من أشكال الاجتهاد، وبينهما عموم وخصوص، وإنما ذكر دون غيره للأهمية ولإظهار الغاية من البحث في الاجتهاد في علوم السنة وهو التجديد فيها.

ولا شك في أن الاجتهاد والتجديد مفهومان على غاية الأهمية، فمع مرور الزمن، يألف الناس الأفكار حتى تكاد تفقد معناها، ويعتاد الناس بعض الممارسات التي يتّبع فيه الجيل سابقه، تقليداً دون جهد في التفكير، وتستجد ظروف ومسائل ونوازل تحتاج إلى بيان أحكامها، لذلك يلزم الاجتهاد في إثارة الفكر، وتحريك الهمم لتعميم النصوص وتثويرها وتنزيلها على الوقائع المتجددة، فبعض أشكال الفهم تحتاج إلى مراجعة، وبعض مسائل العلم تحتاج إلى إعادة تكييف وتقويم، من أجل ذلك جاءت الشريعة بتأكيد الحاجة إلى استمرار الاجتهاد، لاستنباط طرق جديدة في الفهم، وتجديد قدرة الدين على الاتصال بقضايا الحياة في الزمان والمكان، وبذلك تتحق متطلبات التقدم في حياة الأمة وعمران المجتمع، وتواصل نهوضها الحضاري. وهكذا يرى الناس جدّة الدين وحيويته، وصلته بالأحداث الواقعة والقضايا المتجددة. وبهذه الطريقة نفهم حديث النبي ﷺ: "إنَّ

[٩] سيف الدين عبد الفتاح: التجديد مقال إسلام أون لاين.

- http://www.arabphilosophers.com/Arabic/adiscourse/aarabic/arabic_articles/ARenaissance/Renovation.htm.

اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا."[١٠] ويرى عمر عبيد حسنة: "أن هذا الحديث لا يجوز أن يقتصر فهمه–كما هو حال الذين يعيشون في غرفة الانتظار– على الإخبار بما سيكون فقط، وإنما له أبعاد أخرى متعددة، يأتي في مقدمتها وعلى رأسها بعدٌ تكليفي أيضاً، يتضمن حمل الأمانة واستشعار المسؤولية عن هذا الدين، وحراسة النصوص، والاجتهاد لاستمرار عطائها وتحقيق الانفعال بها في حياة الناس."[١١]

وقد رأى البعض عبر عصور مختلفة أن باب الاجتهاد مغلق، وأنه لا يمكن الاجتهاد في مسائل الفقه وأحكامه، وقد ردّ على هؤلاء كثيرون مما لا يتسع المقام لذكره. ولكن التردد في إمكانية الاجتهاد في علوم السنة قد يبدو وجيهاً، خاصة وأنَّ الحاجة إليه قد لا تبدو واضحة مثل الاجتهاد في الأحكام الشرعية، بحكم العلاقة بالمستجدات، والحاجة إلى الحكم فيها، لكننا إذا أنعمنا النظر سنجد أنَّ كثيراً من المبررات للقائلين بالحاجة إلى الاجتهاد في الأحكام الشرعية، يمكن أن تنسحب على القول بالحاجة إلى الاجتهاد في علوم السنة أو علوم القران، بل إن "الاجتهاد اليوم ليس جائزاً فحسب، بل هو فرض كفاية على المسلمين، مثل كل فروض الكفايات التي بها قوام أمر الدين والدنيا، بحيث إذا توافر من يقوم بها ويسد ثغراتها بكفاية وجدارة، سقط الإثم عن سائر الأمة، وإلا أثمت الأمة كافة، وأولو الأمر فيها خاصة، لأنهم مسؤولون عن تهيئة من يقوم بفروض الكفايات العامة. ولقد ذهبت الحنابلة ومن وافقهم إلى أنه لا يجوز أن يخلو عصر من العصور من مجتهد يرجع الناس إليه."[١٢] ومن المؤكد أن النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة النبوية ستبقى دائماً منبعاً للهداية ومصدراً للاجتهاد، ولذلك فإن علوم القرآن وعلوم السنة لا بد أن تكون مفتوحة للمراجعة والتجديد.

---

[١٠] السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، كِتَاب: الْمَلَاحِمِ، بَاب: مَا يُذْكَرُ فِي قَرْنِ الْمِائَةِ، ص١١٥٠، حديث رقم٤٢٩١.

[١١] حسنة، عمر عبيد. **الأعمال الكاملة: الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط١،٢٠١١م، ص١٧.

[١٢] القرضاوي، يوسف. **الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٨م، ص٢٣.

وتكمن أهمية الاجتهاد والتجديد بداية في أن النبي ﷺ حث عليهما، فقال ﷺ في أمر الاجتهاد: "إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ."[١٣] فالنبي ﷺ هنا –وإنْ نصَّ على الحاكم– فإن الاجتهاد لازم للحاكم المسلم أو من يقوم مقامه في جانب الاجتهاد، فهو هنا يحثنا على الاجتهاد، سواء كان اجتهاداً في الحكم الشرعي، أو في إثبات الدليل على الحكم الشرعي، أو في فهم الدليل. وهكذا فكل جهد قصد الباحث فيه الوصول إلى أمر أو رأي، وأراد بذلك البحث عن الحق فهو مأجور على صوابه وعلى خطئه. ويدخل في دائرة هذا الاجتهاد، ولا شك، البحث في علوم السنة النبوية روايةً ودرايةً، لما لهذا من أهمية، سواء في أدلة الأحكام أو في فهمها.

أما التجديد الذي هو إعادة إحياء القديم ونفض الغبار عنه، وتسهيل الوصول إليه، فهو من باب تجديد الدين بلا شك، وهذا مرتبط بتأكيد النبي ﷺ على ذلك في حديث تجديد الدين السالف ذكره.

وإذا لم يطل التجديد العلوم المتعلقة بأصول الدين، فكيف سيكون التجديد؟ خاصة إذا علمنا أن أصول الدين ثابتة لا تتغير، فما الذي يتجدد إذن، إن لم يكن تجدد الفهم المتشكل بناءً على العلوم المرتبطة بالنص والناشئة حوله.

٢. النبي ﷺ مجتهد مجدد:

أما أن النبي ﷺ مجدد، فلا يختلف عليه اثنان: فهو من جهة مجدد عقائد من سبقه من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال النبي ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة."[١٤] ومتمم لمكارم الأخلاق، كما أخبر عن نفسه ﷺ: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق."[١٥]

---

[١٣] البخاري، محمد بن إسماعيل. **صحيح البخاري**، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٩٨٧م، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، بَاب: أَجْرِ الْحَاكِمِ إِذَا اجْتَهَدَ فَأَصَابَ أَوْ أَخْطَأَ، ص٢٢٤٣.

[١٤] المرجع السابق، ج٣، ص١٣٠٠، حديث رقم٣٣٤١.

[١٥] ابن حنبل، أحمد. **مسند الإمام أحمد**، تخريج: شعيب الأرناؤوط وزملاؤه، تصحيح: الشيخ شعيب، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١م، ج١٤، ص٥١٣.

أما كون النبي ﷺ مجتهداً، فهذا واضح أيضاً. فإذا أدركنا أن السنة النبوية هي التطبيق العملي النبوي للقرآن الكريم، وأدركنا أن من السنة النبوية ما كان وحياً من الله وهو الذي ينطبق عليه قول الله عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤). فسبيله سبيل تبليغ الرسالة، ومنه: ما يعرف بالسنة التشريعية،[١٦] ومنها(السنة) ما ليس من باب تبليغ الرسالة، فهو محل اجتهاد من النبي ﷺ، ومنه ما لم يكن محلاً لحكم شرعي في الغالب، ومن ذلك أقضية النبي ﷺ، حيث قال عليه الصلاة والسلام: "إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له به قطعة من النار."[١٧] فلو كان القضاء وحياً فلا يمكن أن يخطئ فيه النبي ﷺ، ومثله بعض خبرات الدنيا في الزراعة والطب وغيرها. وقد قال ﷺ في بيان ذلك: "إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر."[١٨] ومن ذلك اجتهاده ﷺ في حادثة تأبير النخل، فعن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل فقال: «ما يصنع هؤلاء». فقالوا يلقحونه يجعلون الذكر فى الأنثى فيلقح. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظن يغنى ذلك شيئا». قال فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: "إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل."[١٩]

وكل ذلك من السنة التي نرويها عن النبي ﷺ، فإذا كان بعض السنة نفسه محل اجتهاد من النبي ﷺ، فكيف بالعلوم المرتبطة بالسنة؟ وهو محل بحثنا هنا.

---

[١٦] القرضاوي، يوسف. **السنة مصدراً للمعرفة والحضارة**، الدوحة: مركز بحوث السنة بجامعة قطر، ١٩٩٥م، الجانب التشريعي في السنة النبوية، ص١١-٧٨.

[١٧] مسلم، بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الجيل ودار الآفاق، ج٥، ص١٢٨، حديث رقم٤٥٧٠.

[١٨] المرجع السابق، ج٤، ص١٨٣٥، حديث رقم٢٣٦٢.

[١٩] المرجع السابق، ج٧، ص٩٥، حديث رقم٦٢٧٥.

٣. علوم السنة والعقل:

ولعله من الضروري في هذا المقام التوقّف أمام علاقة العقل بالسنة، وأنا هنا لا أريد العودة إلى الخلاف القديم حول العلاقة بين العقل والنقل، فتلك مسألة كتب فيها الكثير، وبات معلوماً للكثيرين أن افتراض الصراع والتعارض بينهما وَهْم، وأن الأصل بينهما التعاضد لا التعارض. ولكن ما أود الإشارة إليه: أننا لا نتحدث هنا عن السنة، وإنما عن علوم السنة، وأظنه لا يختلف اثنان في أن هذه العلوم اجتهادية، دور العقل فيها كبير، قديما وينبغي أن يكون حديثاً، فالجرح والتعديل مثلا الذي هو من أهم علوم الحديث، وهو المتعلق بقبول رواية الراوي أو ردها، علم اجتهادي.

يقول أبو بكر السَّرَخْسِيُّ: "ولا يقال إن رواية العدل عنه (الراوي الساقط في المرسل) تكون تعديلاً له وإن لم يذكر اسمه، لأن طريقَ معرفة الجرح والعدالة هو الاجتهادُ، وقد يكون الواحد عدلاً عند إنسان، مجروحاً عند غيره، بأن يقف منه على ما كان الآخر لا يقف عليه."[٢٠] بل إن جلَّ القواعد والضوابط المتعلقة بحال الحديث سنداً ومتناً، من حيث القبول والرد، جلّها اجتهادية، وخير دليل على ذلك الخلاف حول كثير منها، ومن ثمّ فتجديد الاجتهاد فيها ممكن ولا شك، على أن يكون هذا حسب الأصول العلمية للاجتهاد، ومن المتخصص والمؤهل، فإذا جاز الاجتهاد في إثبات النص من السنة، فأسهل منه الجواز في فهمه أو أصول هذا الفهم.

ثانياً: أنواع الاجتهاد

والاجتهاد في الحقيقة أنواع، وإن كان الذهن ينصرف إلى الاجتهاد بمعنى الإتيان بالأحكام والعلوم الجديدة، وهذا أقرب إلى الاجتهاد الإنشائي، إلا أنه لا ينحصر فيه، ونحن هنا نحاول أن نوضح أنَّ الاجتهاد الذي ننشده في علوم السنة، ليس بالضرورة الإتيان بعلوم جديدة، وإن كان هذا جزء من الاجتهاد والتجديد الذي ننشد، ولكنه

[٢٠] السَّرَخْسِي، أبو بكر محمد بن أحمد. **أصول السرخسي**، بيروت: دار الكتاب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٣٦٠.

يتعداه إلى ما هو أوسع من ذلك. وفيما يلي نحاول أن نقدم مقاربة لأنواع الاجتهاد الذي ننشد:[٢١]

١. الاجتهاد الإبداعي الإنشائي:

ونقصد بالاجتهاد الإبداعي الإنشائي هنا أن يبدع الباحث بأن ينشئ علوماً أو أجزاء من علوم إنشاء جديداً، سواء كان ذلك ابتداء أو استناداً على ما فات أو قياساً على بعض ما هو قائم، وهذا النوع من الاجتهاد بلا شك من أصعب أنواع الاجتهاد خاصة في مجال علوم السنة. ورغم ما تعتور هذا الاجتهاد من صعوبات وعقبات، إلا أن حجم المتغيرات المؤثرة في علوم السنة، كثير إلى درجة يجعل الأمر أسهل مما قد يبدو، ولمزيد من الوضوح في هذه المسألة، فلنتأمل التساؤلات الآتية:

- هل لتطور العلوم بأشكالها وأنواعها؛ التقنية والطبية وغيرها أثر على الرواية؟ سواء من جهة الثبوت والقبول، تصحيحاً وتحسيناً، أو من جهة الفهم والتأويل والتنزيل على الواقع؟ فإذا كان الحديث ضعيفاً، وجاءت الحقائق العلمية تؤيده، فهل يرتقي هذا به ليصبح صحيحاً؟

والعكس أيضاً، فهل إذا جاءت الحقائق العلمية تعارض حديثاً صحيحاً تجعله ضعيفاً؟ وما مدى الأثر الذي يمكن أن تحدثه مثل هذه التغيرات والحقائق على الروايات فهماً وتنزيلاً؟

فعلى سبيل المثال لا الحصر، شاع فهم الحديث المتعلق بنفخ الروح في الجنين في شروح الحديث وعند كثير من الفقهاء؛ أنّ نفخ الروح يكون بعد مائة وعشرين يوماً، أربعين يوماً نطفة، ثم أربعين يوماً علقة، ثم أربعين يوماً مضغة، ثم تنفخ فيه الروح، وقد بنى كثير من العلماء فتاواهم المتعلقة بالإجهاض وغيره على هذه الرواية، ثم لما تطور الطب

---

[٢١] فكرة هذه الأنواع للاجتهاد مستوحاة من تقسيم الدكتور يوسف القرضاوي للاجتهاد على صعيد الأحكام الشرعية، انظر:

- القرضاوي، **الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط**، مرجع سابق، ص٢٣-٢٤.

- القرضاوي، يوسف. **مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية**، القاهرة: مكتبة وهبه، ط٤، ٢٠٠١م، ص٢٧٣-٢٧٨.

الحديث وتطورت تكنولوجيا الطب، وأصبح التصوير الإشعاعي ممكناً، ويكشف مراحل تطور الجنين، ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن مرحلة تشكل المضغة (آخر المراحل الثلاثة) التي تنفخ بعدها الروح، إنما تكون في نهاية الأربعين الأولى؛ أي إن المراحل الثلاثة التي تحدثت عنها الرواية تكون في الأربعين الأولى، وأن الجنين بعد الأربعة شهور (مائة وعشرين يوما) يكون قد تجاوز مرحلة المضغة بكثير، بل يكون جسمه قد تشكّل وبدأت تظهر أطرافه، وهذا ما حدا بالدكتور شرف القضاة مثلا أن يعيد دراسة الروايات المتعلقة بنفخ الروح في الجنين، ويظهر إشكال التعارض بينها، ويعمل على التوفيق بينها في ضوء ما أثبته العلم الحديث من حقائق، وترجح لدى الدكتور شرف في بحثه أن الروح تنفخ بعد الأربعين الأولى.[٢٢]

وتكمن أهمية هذا الاجتهاد في أنه يفتح الآفاق واسعة في محاولة بناء النظريات حول موقف السنة النبوية من كثير من المسائل الحياتية؛ السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، محاولة للوقوف على النظرية النبوية في إدارة الدولة، أو النظرية النبوية في السياسة أو العلاقات الدولية أو في بناء الشخصية الإنسانية.

هذا فضلاً عن محاولة بناء القواعد والنظريات والضوابط في الحكم على الروايات، من جهة أثر المستجدات العلمية والطبية والتكنولوجية على السنة النبوية ثبوتاً أو فهماً وتنزيلاً.

كما أن من أبرز مجالات هذا الاجتهاد، إجراء الدراسات الموضوعية للأحاديث النبوية، وتكمن أهمية هذا المجال في أنه يجسد حقيقة قابلية الدين عموماً، والسنة خصوصاً لمعالجة كثير من مسائل الحياة، وتلبية حاجات الإنسان، ولا شك في أن هذا المسار أخذ حظاً وافراً من الاهتمام، خاصة من طلبة الدراسات العليا في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وهو مع ذلك مجال واسع وافر للمعرفة لا تكاد تنضب، كون السنة النبوية، كما هو القرآن الكريم، مع إدراك الفوارق بينهما، يصلحان على وجه الإجمال أن يكونا مصدراً في كل جانب من جوانب الحياة: عقيدة أو تشريعاً، خلقاً أو سلوكاً، معرفة

[٢٢] القضاة، شرف. "حديث نفخ الروح في الجنين"، **مجلة دراسات**، الجامعة الأردنية، مج١٣، عدد١٢، ١٩٨٦م، وقد نشر البحث مستقلاً انظر:
– القضاة، شرف. **متى تنفخ الروح في الجنين**، عمان: دار الفرقان، ١٩٩٠م، ص٣٦.

أو حضارة، ويضاف إلى ذلك مجال المعارف الإنسانية والتاريخية والحضارية التي يمكن أن تستنبط من السنة النبوية، خاصة إذا جمعت أو درست دراسة موضوعية. على أن الباحث يحتاج أن يبذل مجهوداً خاصاً في اختيار الموضوعات في هذا المسار بحيث لا يكرر جهود غيره، لكثرة ما كتب فيه من الأبحاث.

ومن الأمثلة على الأبحاث المحتاجة للاجتهاد في هذا المجال:

- إعادة النظر في كثير من المرويات المعروفة بالإسرائيليات، وقد لا يبدو البحث في هذا الجانب جديداً، إلا إذا تم ربطه بما توافر في هذا الزمان من سقف معرفي تمثل في ترجمة العديد من المعارف والدراسات التي تختص ببني إسرائيل، ومن ذلك ترجمة التلمود البابلي إلى العربية، ونحوه، مما يفتح آفاقاً أمام رؤى جديدة –لم تكن من قبل متاحة– في نقد الإسرائيليات.

- السنن الإلهية في ضوء السنة النبوية: فالسنن الإلهية نالت حظاً وافراً من البحث في الإطار النظري، وفي القرآن الكريم في الجانب التطبيقي، لكنها ليست كذلك في السنة النبوية، ومن الدراسات المنشورة في هذا المجال، دراسة بعنوان: "السنن الإلهية في ضوء السنة النبوية سنن زوال الأمم نموذجا،"[٢٣] وهو بحث جمع بين الجانب النظري والتطبيقي لكن دون استقصاء، وأرى أنَّ الأمر لا يزال بحاجة إلى المزيد في هذا الجانب وغيره، مثل سنن النهوض الحضاري، والسنن التاريخية، أو حتى السنن الكونية وهكذا.

- التعايش مع الآخر في ضوء السنة النبوية: وهذا الأمر مما تحدث فيه الكثيرون في ضوء القرآن الكريم، وفي الإطار النظري، لكنه كذلك من الموضوعات التي تحتاج إلى استقراء ودراسة في السنة النبوية كونها الجانب التطبيقي للهداية القرآنية التي تختص بالآخر الديني والعلاقة معه، في مجتمعات المسلمين.

- الإنسان في السنة النبوية: فلا أظنه يخفى على باحث أن الإنسان والاهتمام به هو محور الأديان جميعاً، وقد نظر كثيرون لهذا الإطار في القرآن الكريم. والسنة النبوية

[٢٣] سعيد، عبد الجبار. السنن الإلهية في ضوء السنة النبوية، سنن زوال الأمم نموذجاً، **مجلة أبحاث اليرموك**، ٢٠٠٥م.

تثبت صدق مكانة الإنسان في الممارسة النبوية العملية. ويمكن أن يتناول الباحثون جزئيات في إطار النظرية العامة حول محورية الإنسان في القرآن، مثل تناول الاهتمام بالبناء العقلي أو الروحي أو النفسي للإنسان، وفي مراحل معينة، وهكذا.

ولا تفوتني هنا الإشارة إلى حاجة الباحثين والمجتهدين في الدراسات الموضوعية، للإفادة من كتاب الحديث الموضوعي للدكتور خالد الشرمان،[٢٤] والإطار المنهجي التنظيري الذي يضعه للدراسات الموضوعية. وهو في الأصل رسالته لنيل درجة الدكتوراه من جامعة اليرموك الأردنية. وكذا الفهرس التصنيفي للموضوعات التي يمكن أن تدرس في السنة النبوية والذي عمل على تصنيفه الدكتور همام سعيد.[٢٥] وقد أخذ منه جهداً وشوطاً طويلاً، وفيه الكثير من الآفاق والفوائد التي يحتاجها الباحثون.

٢. الاجتهاد التجديدي:

ونقصد به إعادة إنتاج علوم السنة وتجديدها، وذلك بتبسيطها للناس وتقريبها منهم، وإعادة كتابتها باستخدام لغة العصر، والإفادة من وسائل الكتابة والإنتاج الحديثة، من علوم الحاسوب ونحوها، وهذا النوع من الاجتهاد يمكن أن يشمل جميع علوم الرواية والدراية، مثل مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل وقواعده، وفهرسة الروايات والكتب وتصنيفها، والحكم عليها، واختصار المطولات، وتبسيط لغة العلم التي يقدم بها للناس، خاصة في مجال شروح الأحاديث وتحليلها، والأحكام التي يمكن أن تستفاد من الروايات، وتغيُّرها، وهكذا.

ومن المجالات التي ترتبط بهذا الاجتهاد دراسة مرويات الفتن، ومحاولة فهمها والربط بينها وبين هذا الواقع المتغير، خاصة أنَّ كثيراً من أمارات الساعة وأشراطها الصغرى قد ظهرت وباتت واضحة لكثير من الناس، والأهم من ذلك هو محاولة بناء منهجية في التعامل معها، حيث تنتشر بين الناس النظرة السلبية القائمة على التسليم بما يظهر من الفتن، وكأنه قدر محتوم لا مجال لرده. ولنا أن نتصور كم سيؤثر الواقع الذي نحياه اليوم في

[٢٤] الشرمان، خالد محمد. **الحديث الموضوعي دراسة تأصيلية تطبيقية**، عمان: دار الفرقان، ٢٠٠٩م.

[٢٥] سعيد، همام عبد الرحيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية (عمان، الأردن)، ١٩٩٤م.

تحديد فهم الروايات المتعلقة ببني إسرائيل، ونفسياتهم، وخصائصهم، وطريقة التعامل التي ينبغي أن نسلكها في التعامل معهم، في ضوء ما أتاحه لنا الواقع في فهم هذه الروايات فهماً جديداً واقعياً، وهو ما لم يكن متاحاً عند السابقين، ومن ثمّ التأثير حتى في ثبوت الرواية تقوية أو تضعيفاً. وهذا الجانب الأخير يرتبط بالاجتهاد الانشائي الإبداعي المشار إليه سابقاً.

٣. الاجتهاد الترجيحي المقارن:

ونقصد به الترجيح بين اجتهادات العلماء والمحدِّثين، فيما اختلفوا فيه، سواء في علوم الحديث وقواعده وضوابطه، أو في الجرح والتعديل في الرواة المختلف فيهم، بين جرح وتعديل، أو في اختلاف العلماء في فهم نص معين وشرحه، أو استنباط حكم منه. وما أود الإشارة إليه هنا، أن علماء الحديث اختلفوا وتباينوا فيما بينهم، سواء في تحديد المصطلحات، أو في أنواع الحديث، أو في قواعد الجرح والتعديل، وما يجرح به الراوي وما لا يجرح به، وما يلزم ذكر السبب فيه وما لا يلزم، وفي حال التعارض بين الجرح والتعديل، أيهما يقدم؟ الجرح أم التعديل؟ إذا كان الاختلاف من عالِمَين أو من عالم واحد، وربما كان الاختلاف بين المحدِّثين في هذا المجال، لا يقل شأناً عن الاختلاف بين الفقهاء في الأحكام،[٢٦] فالترجيح والانتقاء بين أقوال العلماء في مجال القواعد والمفاهيم، أحد أوسع مجالات هذا الاجتهاد الترجيحي الانتقائي، ولا يقل شأناً عنه ما يترتب على ذلك من الترجيح بين الروايات التي يحكم عليها من خلال تلك القواعد والضوابط، فمن رجّح تقديم الجرح على التعديل مثلاً، سيحكم على راو بالضعف، ومن ثم على روايته كذلك، بينما من رجح تقديم التعديل سيحكم عليه بالتوثيق، ويصحح روايته بناء على ذلك، وهكذا، فهذا من أوسع مجالات الاجتهاد.

وتكمن أهمية هذا المسار في كونه يجلي الصورة لكثير من مسائل الحديث وقواعده التي قد ينبني عليها التغير في الحكم على الرواة والروايات، ومن ثم التغير فيما بني عليها

[٢٦] انظر نموذجاً لهذا الخلاف:

– الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي. **الكفاية في علم الرواية**، تحقيق: أبو عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، المدينة المنورة: المكتبة العلمية، د.ت، ص١٠٧-١١١.

من أحكام وأفهام ومعارف وعلوم، على أن الباحث يحتاج في هذه الدراسات أن يستقصي كل ما يتعلق بالمسائل قيد البحث، ويقارن فيما بين أقوال العلماء وآرائهم واجتهاداتهم، ويخلص إلى رأي راجح وفق منهجية في الاجتهاد معتبرة وواضحة ومحددة.

ومن العناوين المقترحة للبحث هنا في مجال المفهوم والمصطلح:

- الحديث الحسن عند المحدثين دراسة مقارنة:

قد يقول قائل لن يأتي الباحث بجديد في المسألة، ولكن الخبير بمسالك علم مصطلح الحديث، يعلم مدى التفاوت بين المحدِّثين في مفهوم الحديث الحسن، وندرك مدى أهمية الأمر إذا تذكرنا أن الحديث الحسن من الحديث المقبول، بعد الصحيح، والتفاوت الحاصل بين المحدِّثين، يصل حد اعتبار ما يعده الترمذي حسناً في بعض الحالات يعده البعض الآخر ضعيفاً حسب شروط المحدثين. مما يقتضي تحرير الأمر والوقوف على أقوال العلماء والمقارنة فيما بينها. ولننظر تفاوت علماء الحديث حول الحديث الحسن، نموذجاً على مدى التباين الذي أشرنا إليه سابقا.

قال: "وهو (الحسن) في الاحتجاج به كالصحيح عند الجمهور. وهذا النوع لما كان وسطاً بين الصحيح والضعيف في نظر الناظر، لا في نفس الأمر. عسر التعبير عنه وضبطه على كثير من أهل هذه الصناعة. وذلك لأنه أمر نسبي، شيء ينقدح عنه الحافظ، ربما تقصر عبارته عنه."

"وقد تجشم كثير منهم حده. فقال الخطابي: هو ما عُرف مخرجه واشتهر رجاله، قال: وعليه مدار أكثر الحديث، وهو الذي يقبله أكثر العلماء، ويستعمله عامة الفقهاء."

"قلت (ابن كثير)": فإن كان المعرف هو قوله: "ما عُرف مخرجه واشتهر رجاله" فالحديث الصحيح كذلك، بل والضعيف. وإن كان بقية الكلام من تمام الحد، فليس هذا الذي ذكره مسلماً له: أن أكثر الحديث من قبيل الحسان، ولا هو الذي يقبله أكثر العلماء ويستعمله عامة الفقهاء. قال ابن الصلاح: وروينا عن الترمذي أنه يريد بالحسن:

ألا يكون في إسناده من يتهم بالكذب، ولا يكون حديثاً شاذاً، ويروى من غير وجه نحو ذلك. وهذا إذا كان قد روي عن الترمذي أنه قاله ففي أي كتاب له قاله؟ وأين إسناده عنه؟ وإن كان قد فُهم من اصطلاحه في كتابه "الجامع" فليس ذلك بصحيح، فإنه يقول في كثير من الأحاديث: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه."

"قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله: وقال بعض المتأخرين: الحديث الذي فيه ضعف قريب مُحتمل، هو الحديث الحسن، ويصلح للعمل به."

"ثم قال الشيخ: وكل هذا مستبهم لا يشفي الغليل، وليس فيما ذكره الترمذي والخطابي ما يفصل الحسن عن الصحيح وقد أمعنت النظر في ذلك والبحث، فتنقح لي واتضح أن الحديث الحسن قسمان: أحدهما: الحديث الذي لا يخلو رجال إسناده من مستور لم تتحقق أهليته، غير أنه ليس مغفلاً كثير الخطأ، ولا هو متهم بالكذب، ويكون متن الحديث قد روي مثله أو نحوه من وجه آخر، فيخرج بذلك عن كونه شاذاً أو منكراً. ثم قال: وكلام الترمذي على هذا القسم يُتنزل."

" قلت (ابن كثير)":لا يمكن تنزيله لما ذكرناه عنه. قال: القسم الثاني: أن يكون راويه من المشهورين بالصدق والأمانة. ولم يبلغ درجة رجال الصحيح في الحفظ والاتقان، ولا يُعد ما ينفرد به منكراً، ولا يكون المتن شاذاً ولا معللاً. قال: وعلى هذا يتنزل كلام الخطابي، قال: والذي ذكرناه يجمع بين كلامهما. قال الشيخ أبو عمر: لا يلزم من ورود الحديث من طرق متعددة كحديث "الأذنان من الرأس"[٢٧] أن يكون حسناً، لأن الضعف يتفاوت، فمنه ما لا يزول بالمتابعات، يعني لا يؤثر كونه تابعاً أو متبوعاً، كرواية الكذابين والمتروكين، ومنه ضعف يزول بالمتابعة، كما إذا كان راويه سيء الحفظ، أو روي الحديث عن حضيض الضعف إلى أوج الحسن أو الصحة."[٢٨]

---

[٢٧] حديث الأذنان من الرأس ورد من طرق كثيرة، ومختلف فيه بين الرفع والوقف والتصحيح والتضعيف، انظر تخريجه والتعليق عليه ودراسة أوجه الاختلاف في:

– ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٣٦، ص٥٥٥–٥٥٩، حديث رقم٢٢٢٢٢.

[٢٨] ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **اختصار علوم الحديث**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، د.ت، ص٣٧–٤١.

- الحديث المرسل بين المحدثين والفقهاء دراسة مقارنة:

وهذا من أكثر المسائل تفاوتاً بين المحدثين أنفسهم، وبينهم وبين الفقهاء. سواء من حيث المفهوم أو من حيث القبول والرد والشروط. فالباحث في علوم الحديث يعلم مدى التفاوت بين المحدثين أنفسهم، وبينهم وبين الفقهاء في الموقف من الحديث المرسل قبولاً أو رداً، والخلاف الدائر بينهم في الموقف من مراسيل كبار التابعين ومراسيل صغار الصحابة. وما ينبني على هذا التفاوت واضح بلا شك، من حيث بناء أحكام على المرسل إذا كان مقبولا، أو عدمه إذا كان مردوداً.

- التدليس أقسامه وأحكامه دراسة مقارنة:

وهذا أيضاً من المفاهيم والمصطلحات الشائكة بين المحدثين، وتفاوت الأحكام على روايات المدلسين وطبقاتهم بحاجة إلى دراسة وتأمل، كذا الموقف من رواية المدلس تدليس التسوية، أو المرسل إرسالاً خفياً، على ما بينهما من فروق أو تشابه، ومتى تقبل رواية المدلس ومتى لا تقبل، وما مدى التسليم بصحة قبول رواية المدلسين إذا وردت في الصحيحين، وغير هذا من المباحث التي إذا وقفنا على المقارنة بين أقوال العلماء فيها، وحاولنا الترجيح سيتغير كثير من الأحكام والمواقف من الروايات أيضاً.

أما في مجال الجرح والتعديل، فهو من أوسع مجالات البحث في هذا المسار الاجتهادي، فالخلاف بين المحدثين فيه واسع وبعيد المدى، ومن ذلك على سبيل المثال:

- تعارض الجرح والتعديل دراسة مقارنة بين المحدثين: فقد تفاوتت فيه أقوال المحدثين أيما تفاوت: فمن ذاهب إلى تقديم الجرح على التعديل، ومن ذاهب إلى ضده، وثالث يقدم الجرح إذا كان مفسراً، ورابع يقدم الأكثر عدداً وهكذا، ولا يخفى ما ينبني على ذلك من الحكم على الراوي، فهذا سيوثقه والآخر سيضعفه، وبناء عليه تقبل الرواية أو تُردّ. وهذا التفاوت بين كون التعارض صدر من عالم واحد أو أكثر.

- شروط العدالة والضبط دراسة مقارنة: والخلاف قائم بين المحدثين فيما يطعن في عدالة الراوي وما لا يطعن بين متشدد ومتساهل، وبين ما ينتقص من ضبط الراوي

ومدى هذا الانتقاص، وما الذي ينقل حديثه من درجة الصحيح إلى الحسن إلى الضعيف وهكذا، وما الذي يجبر هذا الخلل في الضبط ومتى وكيف نجبره وهكذا.

- مراتب الجرح والتعديل دراسة مقارنة: فكم من محدّث يَعُدُّ حديثَ راو في رتبة معينة –مثل مرتبة صدوق– مثلاً حسناً وآخر يعده صحيحاً، وكم من محدث يعد مرتبة مقبول في الضعيف وآخر يعدها في الحسن وهكذا. ولعل هذه المراتب وتحرير الخلاف حولها، والحكم عليها، من المباحث الملحّة، كون الشائع فيها أكثر من المحرر والمنضبط، خاصة أن بعض ما شاع منها جاء استناداً إلى آراء بعض العلماء المعاصرين، وانتصاراً لهم من تلاميذهم، وما يشوب ذلك من خلل التعصب لرأي الشيخ واجتهاداته دون تمحيص.

٤. الاجتهاد التطبيقي:

ونقصد به الاجتهاد في تطبيق القواعد والضوابط على الأمثلة والروايات؛ إذ لا يخفى على القارئ في كتب علوم الحديث افتقار كثير منها إلى الأمثلة والنماذج التطبيقية، حيث نجد المثال الواحد على النوع من أنواع علوم الحديث، يرد في معظم –إن لم يكن جميع– كتب علوم الحديث، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على شيوع التقليد والبعد عن التجديد بين أهل هذا الفن من جهة، وعلى قلة توافر الأمثلة التطبيقية من جهة أخرى، مما يستدعي اجتهاداً من نوع آخر، وهو التوسع في دراسة الأمثلة والتطبيقات على مختلف أنواع الحديث وعلومها، وهو ما تفتقر إليه المكتبة الحديثية؛ بسبب وعورة هذا المسلك الاجتهادي، وقلة المادة التراثية فيه، والحاجة إلى جهد خاص ومكثف حتى يحقق الباحث المطلوب، فكثير من الدراسات ربما يفضل الاتجاه إلى الدراسات النظرية، كونها أقل وعورة من المسار الاجتهادي التطبيقي. وهذا المسار يمكن أن يشكل ميداناً فسيحاً للباحثين حيث إنَّ كل نوع من أنواع الحديث، أو كل مفهوم من المفاهيم يمكن أن تعقد له دراسة تطبيقية في ميدان من الميادين سواء في روايات الكتب الستة أو رواتها، أو غيرها من الكتب، أو جميع كتب السنة، ولا يخفى ما لهذا الاجتهاد من أهمية في توضيح وشرح علوم الحديث المختلفة وتقريب فهمها للناس، وتسهيل تعلمها وتداولها.

ومن الأمثلة على الموضوعات التي يمكن تناولها في هذا المسار:

- ما كانت علّته تعارض الوصل والإرسال دراسة تطبيقية: بحيث يحرر الباحث قضية العِلة وتعارض الوصل والإرسال، وأثر ذلك على الرواية، ويجري دراسات تطبيقية في كتب السنة أو بعضها على ذلك.

- ما كانت علته جمع الشيوخ وبقاء اللفظ واحداً دراسة تطبيقية: فيوضح الباحث العِلة وآثارها على الرواية ويعرف بمن كانت هذه علة في مروياته، ويستخرج الروايات التي وقع فيها هذا الأمر في كتب السنة أو بعضها.

- المرسل الخفي دراسة تطبيقية: فيتناول الباحث مفهوم الإرسال الخفي وضوابطه، ويعرف بمن وقع منهم هذا الإرسال ويجري دراسة تطبيقية على الروايات في كتب السنة أو بعضها.

- ما كانت علته أن الأصل فيه الاشتهار، ثم ورد غريباً أو من طرق محدودة: وهذا تحدث عنه بعض المحدثين من جهة التشكيك في صحته، إلى جانب تحرير المسألة النظرية في هذه العلة، فالمسألة بحاجة للنظر في الكثير من الأمثلة التطبيقية ودراساتها من كتب السنة.

- تعارض الحديث مع القرآن دراسة تطبيقية: فمعلوم أن الخلاف كبير في هذه المسألة من الناحية النظرية. ولعلها من أكثر المسائل التي بحثت نظرياً، ولكن الجانب التطبيقي فيها محدود جداً، وتكاد الأمثلة فيه تحصر في مثالين أو ثلاثة ضعيفة أو موضوعة ابتداء، مثل حديث ولد الزنا في النار وغيره، فالحاجة ماسة عند من يرى نقد الحديث بعرضه على القرآن، وإجراء الدراسة التطبيقية عليه في كتب السنة أو بعضها.

- ومثل ذلك يقال في كل قاعدة من قواعد نقد متن الحديث، أو في الضوابط المنهجية لقبول الروايات أو ردها.

٥. الاجتهاد المنهجي:

ونقصد بهذا الاجتهاد العمل على بناء منهجيات صحيحة في التعامل مع السنة النبوية، رغبة في الوصول إلى نتائج علمية سليمة، وبحوث منهجية قائمة على الأصول المنهجية التي يراعيها علماء السنة، ومن ذلك مراعاة ارتباط السنة بالقرآن، والسنة بالسنة، والسنة بمقاصد الشريعة، والسنة بالسنن الإلهية والكونية، وغير ذلك من الضوابط المنهجية المطلوبة لحسن التعامل مع السنة؛ فهماً وإثباتاً وتنزيلاً، كما نقصد بهذا الاجتهاد العمل على تتبع مناهج العلماء، والعمل على تجليتها وتبسيطها لطلاب العلم اليوم.

ولعل المجال الأحوج لهذا النوع من الاجتهاد ما يتعلق بمناهج العلماء في الجرح والتعديل، ومقولاتهم النقدية، وأوزانها النسبية وأثرها في عملية الجرح والتعديل، فهل قول البخاري عن راو أنه ثقة مثله كمثل قول أبي داود مثلاً، أو ابن حبان، أو ابن معين، الذي إذا قال لا بأس به فهو ثقة، فمن المتشدد ومن المتساهل؟ وما معيار التشدد والتساهل أو الاعتدال والتوازن؟

ولعل هذا الاجتهاد المنهجي أحوج للدراسة والبحث، من مناهج التصنيف التي انهمك العلماء في بحثها وتقريرها قديماً وحديثاً، ولا يخفى ما لهذا الاجتهاد من أثر وعلاقة وارتباط بالاجتهاد الترجيحي، خاصة بين علماء الجرح والتعديل في جرحهم وتعديلهم للرواة.

ومما يرتبط بهذا الاجتهاد أيضاً، محاولة استجلاء مناهج العلماء ومواقفهم من التعامل مع السنة النبوية، بفروعها وأقسامها، مثل جزئية الموقف في حال عارضَ الحديثُ آيةً أو قياساً أو مقصداً من مقاصد الشريعة أو حقيقة علمية، أو غير ذلك.

ومن العناوين البحثية المقترحة في هذا المسار:

- منهجية التعامل مع السنة: فبالرغم من تعدد الأبحاث والمقالات في هذه المنهجية إلا أن إنضاجها، وبلورتها ما يزال أمراً في غاية الأهمية، ويتفرع عن هذا دراسة الأحاديث في ضوء المعالم المنهجية الصحيحة في التعامل مع السنة، كنقد الأحاديث في

ضوء مقاصد الشريعة، ونقد الأحاديث في ضوء السنن الإلهية في الكون والمجتمعات والحضارات ونحو ذلك.

- منهج المحدِّث (لعالم من العلماء) ومقولاته النقدية، ويقوم الباحث في مثل هذا العنوان بجمع كل أو أكثر ما صدر عن المحدّث، من خلال كتبه إن وجدت أو من خلال ما نقل عنه، في المصادر الحديثية الأصلية، ويعمل على دراسة منهجه وأحكامه ومقولاته سواء في التصنيف والتأليف، أو في الحكم على الروايات والرواة، أو في التعامل مع السنة وفروع علومها، أو كل ذلك مجتمعاً بحسب ما أنتجه العالم قيد الدراسة.

ولعل من أفضل النماذج التي أقترح القياس عليها في هذا الإطار:

- دراسة "الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصحيحين"[٢٩] للدكتور نور الدين عتر، وهي دراسة قديمة لكنها مفيدة في بابها، بل ومتميزة أيضا.

- ومثل ذلك أن يدرس مثلا أحد علماء الجرح والتعديل، فيقال: الإمام يحيى بن معين (مثلا) ومقولاته النقدية، وهكذا.

- منهج الإمام الرازي (مثلا) في تعليل الأحاديث ومقولاته في الحكم عليها، وهكذا.

- أو أن يقارن بين مناهج مدارس معينة، أو مذاهب معينة في الحكم على الروايات والتعامل معها، كأن يقارن بين المذهبين الحنفي والمالكي من حيث منهجهما في التعامل مع السنة عموماً أو خبر الواحد خصوصاً، أو منهجها في نقد متون الروايات، أو تدرس مدرسة واحدة بعينها، وهكذا.

خاتمة:

الاجتهاد بذل الوسع لتحصيل القواعد والضوابط التي يعرف بها حال الحديث سنداً ومتناً من حيث القبول والرد، ومن حيث الفهم والتنزيل على الواقع، إنشاءً أو منهجاً أو

[٢٩] انظر: عتر، نور الدين. **الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه والصحيحين**، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٧٠م.

تطبيقاً أو ترجيحاً أو تجديدا. والتجديد هو: بذل الجهد في إعادة إنتاج وإحياء ما أنتجه السابقون بما يلائم زماننا وواقعنا المعاصر.

وفي ضوء ما سبق فإن الباحث يذهب إلى إمكانية الاجتهاد والتجديد في علوم السنة النبوية الشريفة، وقد انطلق الباحث من فكرة التنوع في أشكال الاجتهاد، ليكون الإبداعي الإنشائي، أو الترجيحي المقارن، أو التجديدي، أو التطبيقي، أو المنهجي. وقد تناول الباحث كل نوع من أنواع هذا الاجتهاد، وعرض بعض العناوين البحثية والدراسات المقترحة في كل مجال من مجالات هذا الاجتهاد. يبقى أن هذا البحث محاولة لفتح بعض الآفاق أمام الباحثين والعلماء لخوض غمار هذا الاجتهاد والتجديد. والباحث هنا يدعو الباحثين المهتمين بالسنة النبوية والتجديد في علومها، إلى تمحيص مسألة الاجتهاد في علوم السنة ومجالاتها، ومحاولة الوصول فيها إلى مزيد من التحديد والوضوح، بالإضافة إلى تناول مسارات البحث التي يرى الباحث أنها بنيت على أنواع الاجتهاد والتجديد، تناولها بالدراسة والتطبيق والتفعيل، وهو ما يفتح المزيد من الآفاق لتفعيل دور السنة النبوية، وتجديد الاهتمام بها، وحسن التعامل معها فهماً وإثباتاً وتنزيلاً.